

سعودية متمرّدة على الأسود

شادية عالم

رسامة طليعية بسحر إلهامها

فاروق يوسف
كاتب عراقي

قبل ربع قرن التقيت منيرة موصلية وصرنا صديقين. امرأة من مكة وترسم، فنائية مريكة. أكان علي أن أفسر تلك العلاقة الملتبسة؛ رسامة من مكة، مفردتان لا تتسجمان. ما الغريب في ذلك؟ لم يكن الخطأ في الموصلية بالتأكيد.

كنت أفكر بطلاسم حياة خفية تمتزج فيها الأساطير بالإنخفاف الصوفي. ذلك ما ساراه في وقت لاحق في رسوم شادية عالم التي كان من الممكن أن يروق لها أن تبقى مزوقة كتب. مهنة تستعيرها من عصور لا تكف عن إظهار ولعها بها. عالم لا تعنيها الصفة المتاحة بقدر ما يعينها الأداء الجمالي.

فهي رسامة. ذلك مؤكد. غير أنها تنتقل بيسر بين المواد والتقنيات ولا تكف عند حدود المشهد الذي تود أن ترسمه بل تخترقه لتصل إلى الجذر الذي يشكل مصدر إشعاع أزلي. هناك تمتزج الفنون ببعضها البعض. وهو ما استفادت منه الرسامة فكانت تقبض على خلاصة الحكايات بالقوة نفسها التي تقبض بها على روح الشعر.



عالم تنتقل بيسر بين المواد والتقنيات ولا تكف عند حدود المشهد الذي تود أن ترسمه بل تخترقه لتصل إلى الجذر الذي يشكل مصدر إشعاع أزلي، وهناك تمتزج الفنون ببعضها البعض

وهو ما أعانها على النظر إلى المفردات التراثية بطريقة تجريدية؛ فالاشكال التي تمتزج بالكلام لا تبقى على حالها حين تدخل في مرآة الرسم.

بتأثير الشعر القديم والسرد الذي لا يزال يتموج على الشفاه ترسم عالم المشاهد التي تحاول إعادة صياغتها بصريا كما أنها تصنع لتلك المشاهد مسرحا يناسب رغبتها في إعادة خلق العالم.

عالم رسامة تجليات. تهوى الفوتوغراف غير أنها تتحرف بالصورة

عن موقعها الثابت لتدخل في خضم تحولات غير متوقعة. تلجا الرسامة أحيانا إلى الكولاج من أجل أن ترى هوية في طريقها إلى التشكل. هناك عالم يتكون من مجموعة متلاحقة من الإلغاز التي يحو بعضها البعض الآخر وهو ما تستفيد منه الرسامة في التسلل إلى حياة أسطورية، مادتها تكاد لا تترى. وهي المادة التي استعملتها الرسامة في تنفيذ كتاب "جنيات لار" مع اختها الروائية رجاء عالم. لقد غرقت عالم في مياه نهر لار الأسطوري فرسمت مشاهد مستلهمة من عالم لا مرئي؛ عالم لا يراه سوى العرقين. ولأن رجاء مولعة باللعب باللغة فقد كان المجال مفتوحا أمام شادية لكي تلعب بالصور والأشكال. إنها مناسبة للهدم وإعادة البناء. وهو ما تفكر فيه شادية لكي تزيح الأشياء عن مكانها وتقترب عليها وظيفة جديدة.

الأشياء وهي تتحول

في عملها المشترك "القوس الأسود" سعت الأختان، الفنانة شادية عالم والكاتبة رجاء عالم، إلى خلق عمل فني مفاهيمي كان في حقيقته نوعا من التحدي للحدود التي تفصل بين الكتابة والتشكيل البصري. ما فعلته شادية أنها جهزت السرد لكي يكون مرئيا، وقد عرض ذلك العمل المركب في بينالي فينيسيا بدورته الرابعة والخمسين.

ولدت عالم في مكة عام 1960. درست الأدب الإنجليزي في جامعة الملك عبدالعزيز. عام 2011 اختارت الإقامة في باريس. في تسعينات القرن الماضي برز اسمها واحدة من أهم الفنانات السعوديات المجددات. ولقد عرفت عالم باستلهاها الحكايات التراثية والشعبية لكن بطريقة تنأى بها عن التوضيح، فكانت تعيد صناعة الحكاية بما يتناسب مع عناصر وشروط الفن الحديث، وهو ما جعلها قريبة من السرياليين وبالإخص حين تعاملت مع تقنية الكولاج حيث بدا واضحا تأثيرها بتجارب الفنان الألماني ماكس إرنست.

أقامت معرضا في متحف مونبرناس بباريس عام 2004 وكان بعنوان "الكل تغير"، ولهذا العنوان دلالة مثيرة تسلط الضوء على تجربتها الفنية التي تستند أصلا على التحولات التي تتعرض لها طرق الرؤية إلى الأشياء ومن خلالها إلى الوقائع. شغفت الفنانة بالفوتوغراف واعتبرته معادلا للرسم حيث مزجت بين الفنتين في عدد كبير من أعمالها، كما

لجات إلى التركيب والتجهيز في تنفيذ عدد آخر من أعمالها الكبيرة. شهد عام 2011 حدثا كبيرا في مسيرتها الفنية؛ يومها تم تكليفها وأختها رجاء بتمثيل السعودية في بينالي فينيسيا بدورته الرابعة والخمسين. حمل عملها المشترك عنوان "القوس الأسود"، وكان ذلك العمل الكبير الذي احتل مساحة الجناح كله خليطا من الكتابة والرسم والنحت والتجهيز. كانت الأشياء في ذلك العمل تنتقل بخفة بين صلاية وسيولة مدهشتين كما في الأساطير.

بعد اللون الأسود ومن خلاله

"لقد عبرنا الأسود باتجاه قوس المعرفة" تقول عالم وهي تشير إلى اللون الأسود في حياة المرأة السعودية وكثافة رمزيته في الحياة العامة. كان "القوس الأسود" عملا ينطوي على دلالات تعبيرية؛ فهو يجمع بين ما هو شخصي وما هو عام، إضافة إلى أن مشاركة رجاء عالم قد أضفت عليه الكثير من الدلالات الأدبية التي نجحت شادية في إدايتها فنيا.

تقول "يلعب مكان الولادة دورا أساسيا في رؤية المرء للعالم من حوله، فهناك مواقع تتيح مجالا أوسع للرؤية. وهذا يظهر في بناء عملنا "القوس الأسود". فالقادم من باب صالة العرض يرى السواد فقط لكنه لو استدار إلى اليمين أو اليسار فستظهر له لمحات مما وراء. وهناك من يعبر مباشرة إلى الورا وبلا غناء. الحركة هي السر. عندما تتحرك نحو الأمام ترى الأمور بشكل مختلف وبالتالي تعيد تكوين العالم من حوله. ولا شك أن ذلك يعتمد أيضا على طبيعة الشخص نفسه فالعديد من الناس سيرون اللون الأسود فقط".

كالعادة كانت هناك حكاية. ولكنها حكاية يمكن أن تنسى لتحل محلها رحلة الأختين عالم في اتجاه حياة يغلب عليها طابع الكشف عن الحقائق التي تنطوي عليها الوقائع اليومية التي لا تخلو من أفكار ما وراثية.

تجربة في الإيقاع البصري

ما الذي فعلته عالم لتستحق صفة الفنانة الطليعية؛ عبر مسيرتها الغنية بالتحولات جمعت عالم بين اهتمامات يمكن اعتبارها متناقضة ولا يكمل بعضها البعض الآخر. فهي من جهة مولعة بالتراث، الشفهي منه كالشعر والمادي

كالمفردات الجمالية التي تزين الجدران والأبواب والشبابيك والنياب، ومن جهة أخرى استفهت صور الحياة المعاصرة مستعينة بالصور الفوتوغرافية. غير أن ذلك كله لم يشكل تناقضا، ذلك لأن الفنانة استطاعت بذكاء أن تصهر كل عناصر إلهامها في بوتقة أسلوب شخصي لا يمكن أن تخطئه العين.

لقد استطاعت من خلال طريقتها الخاصة في النظر إلى الأشياء والأحداث أن تخلق أسلوبا يجمع بين التوثيق الحسي والأثر الجمالي وما يمكن أن يتجلى من أبعاد بصرية تجريدية. صحيح أنها لجات إلى كتابة الشعر، غير أن تلك الكتابة لم تكن مقصودة لذاتها. كان الشكل بما يخلقه من إيقاع بصري هو المقصود وفي المقابل فإن صور الوقائع المعاصرة يمكن أن تخلق أثرا إيقاعيا هو

الأخر مع ما يمكن أن يحدثه من صخب في المشاعر.

ما يميز تجربة عالم أنها تضع مصادر إلهامها في سياق تجريب جمالي معاصر يضيف عليها طابعا شخصيا؛ فلا شعر امرؤ القيس يبقى في مكانه ولا عناوين الصحف التي تشير إلى وقائع معاصرة. تكتسب الأشياء المستعارة على يدي الفنانة حياة أخرى لا تمت بصلة إلى حياتها السابقة.

رسمت الفنانة كائنات خرافية وفي الوقت نفسه رسمت حفلات زفاف. وكانت الإشارات الرمزية في الحاليين واضحة. ولسم يكن الواقع بالنسبة إليها عبر كل تحولاتها الأسلوبية إلا مرآة فارغة. خلقت شادية عالم واقعا يتناسب مع رؤيتها إلى العالم فكانت طليعية في اختراع عالم سحرية للرسم.



عملها المشترك «القوس الأسود» تسعى فيه الأختان، الفنانة شادية عالم والكاتبة رجاء عالم، إلى خلق عمل فني مفاهيمي كان في حقيقته نوعا من التحدي للحدود التي تفصل بين الكتابة والتشكيل البصري، وما فعلته شادية أنها جهزت السرد لكي يكون مرئيا

